

العربية

المفترى عليها

الأستاذ الدكتور

محمد أبو المكارم قنديل

العربية (المفترى) عليها

أ.د. محمد أبو المكارم قنديل

ألقى هذا البحث بناء على حديث دار في مجلس القسم عن الحداثة ، تطاول بعضهم بأن اتهم العربية بالجمود ، وأنها لا تستجيب لظروف الحياة وعليها أن تستعين ببعض الكلمات العامية لتجدد شبابها ، وفي ذلك خير كثير يعود على اللغة وعلى بنينا .

ثم أرفف ذلك بأن اتهم النحو العربي بالجمود لأنه قاصر على الجملة لا يتعداها ولا يتخطاها ، وعلى النحو أن يعنى بالموضوع كله لا بالجملة فكان هذا البحث ردا على هذا الافتراء .

كما تناول افتراء واحداً من المهاجمين للعربية وهو الدكتور عبد الرحمن أيوب الذي اتهم العربية بالنقل عن الإغريقية وأن النحاة أخذوا عن الإغريق فلسفتهم وأفكارهم .

وكان هذا في يوم الاثنين ٢ من ذى القعدة سنة ١٤١٢

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٩٢

بمدينة الرياض بالسعودية

في كلية التربية للبنات

العريية (المفترى) عليها

أ . د . محمد أبو المكارم قنديل

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت

الوهاب ﴾ (١)

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين ﴾ (٢)

وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين ، هادي الخلق إلى

الحق بلسان عربي مبين وبعد :

فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، والكيس من يحسن الاستماع ويربأ بنفسه عن لغو الكلام ، لأن ما تسمعه هو لك وما تقوله قد يكون لك وقد يكون عليك والصمت محمود ما لم تكن هناك دعوة إلى منكر ، أو عدوان على موروثات الأمة أو انتهاك لحرمة المقدسات ، عند ذلك يكون الصمت جريمة ويكون صاحبه شيطانا أخرس ونعوذ بالله أن نكون من هؤلاء.

وليكن معلوما أنه قد تختلف الآراء وتتصارع الأفكار وتتباين وجهات النظر ولكننا إخوة يجمعنا طريق واحد ، ونمضي إلى غاية لا تختلف عليها ، ويربط بيننا علم ننضوي تحت لوائه جميعا " والعلم رحم بين أهله "

وقبل الدخول في الموضوع أحب أن أنبه إلى أمر خطير هو أن دعاة

الحدائث يبدأون بالتشكيك في التراث بحجة أنه لا يساير العصر ولا

(١) آل عمران : ٨

(٢) الأعراف : ٨٩

ينسجم مع أغراض الحياة ولا يطابق واقعها السريع المتلاحق وبناء عليه فهو لا جدوى منه ولا نفع فيه ثم ينتقلون إلى الهجوم على اللغة باعتبارها وعاء لهذا التراث وحاملة له وينتهي بهم المطاف إلى الهجوم على الدين نفسه لأنه لا يعدو أن يكون من جملة التراث - في نظر هؤلاء - ولا مانع من نقده أو نقضه إن دعت الحاجة إلى ذلك. والدليل على ما أقول أنه في مؤتمر أقيم^(١) لمصطفى صادق الرافعي في كلية التربية . في جامعة طنطا قام واحد من هؤلاء ليلقي بحثاً عن واحد من شعراء الحدائث ادعى في بحثه أن الشاعر فلتة من فلتات هذا الزمان ، وأنه أتى بما لم تستطعه الأوائل وأنه عبقرى في اللغة مجدد فيها ، لذلك يرى الباحث أن على هذا الشاعر أن يقول ما شاء وكيف شاء وعلى علماء النحو أن يضعوا قواعدهم على حسب ما يقول وكان هذا الشاعر في نظر هذا الباحث " فرزدق " القرن العشرين الذي هجا عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ولم يعبأ بما خطأه فيه ، ضارباً بنقد هذا النحوي عرض الحائط .

ويأتى باحث آخر من هؤلاء المحدثين أدعياء التقدم ليعلن في صراحة على ملأ من الناس أن التوراة والإنجيل والقرآن مستمدة من الأساطير .

بهذا الأسلوب الماكر الخبيث يبدأ الهجوم على اللغة ثم ينتهي الأمر بطعن الدين وزعزعة العقيدة وهذا هو الأمل المرجى للحاقدين على الإسلام والمسلمين ..

(١) عقد المؤتمر في سنة ١٤٠٧ هـ الموافق يناير ١٩٨٧ م .

وقد يغتر بزيف دعاة الحداثة بعض الناس ويخدعهم بريق هذا الزيف
فوقولون : نحن من دعاة الحداثة ولكننا بديننا متمسكون وبتراثنا معتزون
لانفرط في شئ من ذلك .

وأقول لهم : إنكم في هذا الخضم الزاخر وفي تلك المتاهات لا
تملكون الوسيلة لتحقيق ما تريدون لأن الأمر ليس بأيديكم أنتم وإنما هو
بيد الذين يدبرون ويكيدون ، ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير
الماكرين ﴾ (١) ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم
محيط ﴾ (٢)

من العجب - والعجب لا ينتهي - أن نرى لغتنا كلاً، مستباحا وحمى
شغل عنه حماه فتناوشته حراب من لا يدفع عن نفسه .

العربية مستهدفة من أعداء هذه الأمة لأنها لغة القرآن ، الدستور
والمنهاج ، مؤتمرات تقام ومؤامرات تحاك ، وأموال تبذل في سخاء
وجيوش من زاعمى العلم ومدعى الاستشراق ، كل هؤلاء قد أهمهم
أمر العربية وشغلوا أنفسهم بها زمنا طويلا إلى أن اهتدوا إلى من يحقق
مأربهم وينادي بما له يخططون ، فرأينا من يشكك في أصالة النحو
العربي . فيدعي أنه منقول عن اليونان ويدلل على ذلك بأن النحويين
يقولون إن سبب إعراب الفعل المضارع هو شبهه بالاسم وهذا الرأي
يتمشي مع الفلسفة الإغريقية التي قررت أن الذات أهم الموجودات وأن
الأحداث تليها في الأهمية وهذه الفلسفة أخذها العرب عن الإغريق .
لست أدري علام اعتمد الباحث في تقريره لهذا الادعاء الذي رمى به

(١) الانفال : ٢٠ .

(٢) البروج : ١٩ ، ٢٠ .

علماء النحو وهو أخذ هذه الأفكار عن الإغريق ؟
 إن الهدف من وراء ذلك هو اتهام العقلية العربية بالقصور والتخلف
 وبأنها عاجزة عن الإبداع والابتكار وهذا أمر جد خطير ما كنا نود أن
 يتورط فيه من ينتمي إلى هذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت
 للناس .

وبعد أن يقول : وعند النحاة أن الفعل المضارع يشبه اسم الفاعل
 في المعنى والعمل ومن أجل هذا اكتسب القوة ، نراه يقول : أظنك لا
 تزال تذكر أن أفلاطون رأى أن الفعل المضارع وحده هو الذي يدل
 على وجود ولهذا فهو كلمة ، أما الماضي والمستقبل فليسا بكلمات ،
 بل أشكال للفعل المضارع الذي هو كلمة .

ونعود لنسأل الباحث : إذا كان النحاة يأخذون قديما عن الإغريق
 لماذا لم يغفلوا أمر الفعل إذا كان للماضي أو للمستقبل كما فعل أفلاطون
 ؟ ولماذا لم يحكموا على الماضي والمستقبل بأنهما ليسا بكلمات ؟ وهل
 يليق بأنهما ليسا بلغات ؟ وهل يليق بمنندى يتلقى العلم في أول عهده
 به أن يخرج عما يقرره أستاذه من قواعد وأصول ؟

والحق أن النحاة على النقيض مما قال به أفلاطون حينما يقررون أن
 الماضي أبعد توكيدا وأقوى تقريرا ، لأنه محقق الوقوع ، لذلك كان
 التعبير القرآني المعجز بالماضي في موضع المضارع في قول الله
 سبحانه : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما

يشركون ﴿ (١)

هل غفل الباحث عن ذلك وهو من بدهيات اللغة ؟ أم أنه تغافل ولوى
عق الحقيقة لشيء في نفسه ؟!

الحق أن هذا افتراء محض ، وكتب صراح .
أما الدعوة إلى العامية فقد تولى كبرها ثلاثة . من المبشرين هم
"سبيتا" . الألماني ، والإنكليزيان : "ويلكس" ، "لمور" وأخرجت
إلى الوجود في "بيروت" عن طريق مجلة ، "المقتطف" التي تبنتها
أكبر مؤسسة تبشيرية وهي الكلية . السورية الإنجيلية ، التي تعرف اليوم
باسم : "الجامعة الأمريكية" : وقد ظاهر هذه الدعوة اليهودي "يعقوب
صنوع" مدعيا الوطنية والدفاع عن الحق واتخذ العامية له سبيلا
ومنهجا واتبع ذلك بإنشاء المسرح العامي وساعد على ذلك المدارس
الأجنبية التي ظهرت هنا وهناك (١) .

وعزز ذلك هيمنة الإنكليز التي تحكمت في مسار الحياة ومصائر
الناس ، وسيطروا على التعليم عن طريق المبشرين الذين وفدوا إلى
بلاد العرب في ثياب الأساتذة والخبراء وعلى رأسهم "دنلوب" .
والدعوة إلى العامية : دعوة فيها غدر وفجور ، أما غدرها فلأنها
تنتهي إلى عزل هذه الأمة عن دينها الذي يمثله قرآنها وقد نزل بلسان
عربي مبين .

ولو جعلنا قرآنا أعجميا لقلوا لولا فصلت آياته ، أعجمي وعربي
قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر
وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد (٢) والداعي إلى

(١) انظر "أبطال وأسمر" للاستاد محمود شاكر . ص ٢٥٦
(٢) فصلت : ٤٤

العامية أحد رجلين :

رجل به دخل ، يكيد لهذه الأمة ويرميها في مقتل ، بأن يوجه ضرباته إلى تراثها ولغتها التي بها بقاء دينها وعقيدتها وهذا يوضع في زمرة أعداء الأمة المتربصين بها ، ومن هؤلاء ، . أحمد لطفي السيد .
المقلب - فيما زعموا - بأستاذ الجيل - وقد أزره على هذا الاتجاه المريب ، الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين .

ومن عجب أن " أحمد لطفي السيد " هذا كان يشيد بشكسبير الذي مجده الإنكليز ، لأنه استعمل من اللغة الإنجليزية عشرين ألف كلمة ورأيناه يدعو أبناء العربية إلى التوسع في استعمال الألفاظ العربية خدمة للمعاني وللغة وللقرآن . (١)

بعد أربع سنوات على هذا الذي (٢) دعا إليه ونادي به شرع الرجل في الدعوة إلى " تمصير اللغة " .

أما الرجل الآخر من الداعين إلى العامية فهو رجل عاجز ، هزيل البناء ، ضحل الفكر أبطأ به استعداده عن تنوق العربية الفصحى فنأى بالعامية ضعفا وقصورا حتى لا يكشف أمره ، وتعرف حقيقته ، وينهار بناؤه المتداعي الذي أقيم على جرف هار .

وأريد أن أسأل دعاة العامية ، أي عامية يقصدون ؟
العامية المصرية ؟ أم العامية السعودية ؟ أم العامية السورية ؟ أم

العامية الجزائرية ؟

إذا قال قائل : نريد العامية المصرية مثلا . سيخرج من يقول :

(١) أباطيل وأسمار ص ٢٦٤ .

(٢) الجريدة ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٩ .

ولماذا لا تكون العامية السعودية ، أو السورية ، أو الجزائرية أو التونسية الخ .

وتدخل في مناهات لا يعلم مداها إلا الله ، وما تلتهي إليه من صراعات قد تضع الأمة بلغتها وأبنائها في أتونها .

علما بأن هناك عاميات تكاد تكون من الطلائع التي تستعصى على أهل العنم والبصر بله السواد الكثير من الناس وإليك بعض الأمثلة :

إقليم النوبة في مصر يتكلم عامية لا يفهمها إلا أهل هذا الإقليم وإذا سمعت جماعة منهم يتحدثون عجزت عن فهم شيء مما يقولون .

في الجزائر يتحدثون بعامية لا يعرفها إلا من عاش بينهم وعاشرهم ردحا من الزمان فهم يطلقون على الرجل : أزجز ، وعلى المرأة :

لمغارا ، وعلى الولد : أفشيشن ، وعلى البنت : تفشيشن ، وعلى القط : أمشس .

وإذا لم يتم الاتفاق على عامية معينة . وهذا أمر مؤكد - فالبديل أن كل بلد يتكلم بعاميته ويكتب بها وينتهي بنا الحال إلى التمزق والتشرذم

ويكون التحايز والتقاطع بين أقطار هذه الأمة وحصيلة ذلك الحيلولة بين أجيال هذه الأمة وبين قرآنها الذي هو منهاج حياتها ولب دينها

وسياج عقيدتها وهذا ما يسعى إليه أعداء هذه الأمة ويعملون له ليل نهار كما صرح بذلك في حقد جرىء أمين عام حلف الأطلنطي حينما

سنل عن مهمة الحلف بعد زوال الشيوعية فقال : "القضاء على الإسلام " هل أدركنا أبعاد المؤامرة ؟ وهل فطنا إلى ما يدبر لنا بليل وما يحاك

لأمتنا في الظلام - من بعيد !!!

ونأتى للحديث عن النحو ، ونقصد به ، " النحو العربي " الذى شغل
أفكار الناس شرقا وغربا في خارج بلاد العرب وفي داخل بلاد
العرب يرمى طورا بالصعوبة وآخر بالجمود ثم يأتي من يقول : إن
النحو عاجز عن الوفاء بالدور المطلوب في عصر التجديد أو في عصر
الحدائثة كما يزعم المحدثون لأن موضوع النحو هو الجملة ونحن نريد
" نحو الموضوع "

وأرد على هذا الزعم الخاطيء بان موضوع النحو ليس الجملة - كما
قيل - وإنما موضوع النحو هو الكلام ، والكلام كما ينتظم الجملة ،
فإنه ينتظم الجمل والتراكيب لأن الجملة لا تقوم بذاتها ، منبئة الصلة
عما قبلها وما بعدها من الجمل وإنما تأتى الجملة موصولة الأسباب بما
قبلها لكونها خبرا له أو صفة أو حالا أو صلة أو معطوفة عليه وعلى
هذا النسق يمضى الكلام في لغتنا العربية فنحن حينما نقرأ قول الله
تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ
يأترون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين ﴾ (١) أو قوله
- سبحانه - ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى
الماوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة
هى الماوى ﴾ (٢)

نجد فى هذه الآيات مجموعة من الجمل ترابطت وتداخلت عن طريق

المعنى والإعراب .

والمعنى والإعراب أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر :

(١) القصص : ٢٠

(٢) النازعات : ٣٧ - ٤٠

وكل آيات القرآن وسوره تمضى على هذا النحو بل كل ما نطق به العرب لا يخرج عن هذا الإطار .

ولا يغيب عنا المعنى الدلالي للمركب الذى يرتبط بعلم النحو ارتباطا وثيقا لذلك لا يميز الفرق بين دلالات الكلام إلا عالم باللغة فقيهه فى نحوها وصرفها خبير بتراكيب الكلام .

فإذا قال قائل : ما عندي مال ، وقال آخر : ما عندي من مال ، فالعالم بالنحو هو الذى يقول لك : إن القائل الأول يكون صادقا فى قوله ، وإن كان يملك ، شيئا قليلا من المال ، أما القائل الآخر فلا يكون صادقا فيما قال إلا إذا كان لا يملك شيئا أى شيء .

واستفيد هذا من الإتيان بـ " من " التى تفيد التخصيص على العموم . ولن يستطيع غير نحوى أن يدلك على الفرق بين قول رجل : أنا قاتل عمرو ، بإضافة . " قاتل " إلي " عمرو " وبين قول آخر : أنا قاتل عمرا بتتوين " قاتل " ونصب " عمرا " .

الإعراب سهل بين ولكن هناك تباين فى مدلول الكلام يستعصى على كثير من الناس وعالم النحو وحده هو الذى يقول لك : إن قائل الكلام الأول جزاؤه القتل قصاصا ، لأنه اعترف بالقتل ، لأن اسم الفاعل " قاتل " جاء دالا على الماضى ، لأنه أضيف إلى المفعول ولم ينصبه فكان الكلام إخبارا .

أما القائل الآخر فإن جزاءه أن يعزر أو يؤدب حتى يرجع عن تهديده ويرتدع عن وعيده وكان كلامه تهديدا ووعيدا لأن اسم الفاعل " قاتل " فى كلامه جاء ناصبا للمفعول به فكان بمعنى الحال أو الاستقبال .

من غير النحوي يفهم الفرق بين قولنا : " أخوك أحب إليك " وقولنا
" أخوك أحب لك " ؟

إن مدلول كل جملة من هاتين الجملتين يختلف عن مدلول الأخرى ،
لأن الأخ في الجملة الأولى هو " المحب " والمخاطب هو " المحب " .
وفي الجملة الثانية الأخ هو " المحب " ، والمخاطب هو " المحب " .
ومرجع هذا الفهم أن " إلى " و " اللام " من معانيهما التبيين ، فإلى
مجرورها يكون فاعلا في المعنى واللام يكون مجرورها مفعولا في
المعنى .

وبعد ، فإن النحو هو علم العربية الذي يقوم عليه بناؤها فكيف يقول
بعضهم - بعد ذلك - إن موضوع النحو محصور في الجملة وعلينا

أن ننظر إلى نحو الموضوع ؟
ما هذا الكلام ؟ وما دلالاته ؟ وما غرض قائله ؟ خبروني إن كنتم
تعلمون !.

في ختام كلمتي لا أملك إلا أن أقول : هذه إرادة الله في ملكه ،
وسنته في خلقه ، اختلاف الناس في العقائد والأفكار والميول
والاتجاهات ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون
مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم
من الجنة والناس أجمعين ﴾ (١)

والله نسأل ألا نكون من هذا الصنف الذي قال الله فيه ﴿ أفمن زين
له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ،

﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ﴾

أقول قولي هذا وأستغفر الله ولي ولكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

